المحاضرة التاسعة عشرة

وَلَا تَتَّخِذَنَّ عَدُوَّ صَدِيقِكَ صَدِيقاً فَتُعَادِيَ صَدِيقَكَ وَامْحَضْ أَخَاكَ النَّصِيحَةَ حَسَنَةً كَانَتْ أَمْ قَبِيحَةً وَتَجَرَّعِ الْغَيْظَ فَإِنِّي لَمْ أَرَ جُرْعَةً أَحْلَى مِنْهَا عَاقِبَةً وَلَا أَلَذَّ مَغَبَّةً وَلِنْ لِمَنْ غَالَظَكَ فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَلِينَ لَكَ وَجُدْ عَلَى عَدُوِّكَ بِالْفَضْلِ فَإِنَّهُ أَحْلَى الظَّفَرَيْنِ وَإِنْ أَرَدْتَ قَطِيعَةَ أَخِيكَ فَاسْتَبْقِ لَهُ مِنْ نَفْسِكَ بَقِيَّةً يَرْجِعُ إِلَيْهَا إِنْ بَدَا ذَلِكَ لَهُ يَوْماً مَا وَمَنْ ظَنَّ بِكَ خَيْراً فَصَدِّقْ ظَنَّهُ وَلَا تُضَيِّعَنَّ حَقَّ أَخِيكَ اتِّكَالاً عَلَى مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكَ بِأَخٍ مَنْ أَضَعْتَ حَقَّهُ وَلَا يَكُنْ أَهْلُكَ أَشْقَى الْخَلْقِ بِكَ وَلَا تَرْغَبَنَّ فِيمَنْ زَهِدَ عَنْكَ وَلَا يَكُونَنَّ أَخُوكَ أَقْوَى عَلَى قَطِيعَتِكَ مِنْكَ عَلَى صِلَتِهِ وَلَا يَكُونَنَّ عَلَى الْإِسَاءَةِ أَقْوَى مِنْكَ عَلَى الْإِحْسَانِ وَلَا يَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ ظُلْمُ مَنْ ظَلَمَكَ فَإِنَّهُ يَسْعَى فِي مَضَرَّتِهِ وَنَفْعِكَ وَلَيْسَ جَزَاءُ مَنْ سَرَّكَ أَنْ تَسُوءَهُ.

معاني المفردات:

١ـ امحض: امحض أخاك النصيحة أي النصيحة الخالصة لا غش فيها

٢ـ تجرّع الغيظ: أي كظمه

٣ـ لِنْ: لَانَ، ضد خَشُنَ وضد صَلُبَ، يقال: لاينه أي لان له ولاطفه

٤ـ القطيعة: الهجران

٥ـ بدا: بدا له في أمر: خطر له فيه رأي

٦ـ تضيّعن: ضيّع: أهمل، أهلك، أفقد

شرح النص

(وَلَا تَتَّخِذَنَّ عَدُوَ صَدِيقِكَ صَدِيقاً فَتُعَادِي صَدِيقَكَ) لا تصاحب عدو صديقك لأن في ذلك تقوية لجانب العدو وإضعاف لجانب الصديق ومن ثم تعادي صديقك.

قال الشيخ محمد جواد مغنية قدس سره: والجمع بينهما تماماً كالجمع بين الماء والنار، قال رجل للإمام علي ع: إني أحبك وأحب معاوية، قال الإمام ع: أنت أعور الآن، أما أن تعمى وإما أن تبصر.

قال بعضهم: إِذَا صَافَى صَدِيقُكَ مَن تُعَادِي فَقَدْ عَادَاكَ وَانقَطَعَ الكَلَامُ

وقال آخر: صَدِيقُ صَدِيقِي دَاخِلٌ فِي صَدَاقَتِي وَخَصْمُ صَدِيقِي لَيْسَ لِي بِصَدِيقِ

(وَامْحَضْ أَخَاكَ النَّصِيحَةُ حَسَنَةً كَانَتْ أم قبيحةً) المحض: الخالص من كل شيء، وامحض أي اخلص لأخيك النصيحة سواء كانت مرة أو حلوة لأنها عادة فيها اصطدام، وإنما يريد نافعة له في العاجل كانت او ضارة له في الآجل، فعبر عن النفع والضرر بالحسن والقبيح.

(وَتَجَرَّعِ الغَيْظَ فإني لم أرَ جُرْعَةً أَحلَى مِنْهَا عَاقِبَةً وَلَا أَلَذُّ مَغَبَةً) اكتم الغضب في نفسك ولا تظهره فإنه أحلى عاقبة لأنه يوجب المحبة والألفة وعدم انجرار الأمر إلى ما لا تحمد عقباه - ولا ألذ مغبة - أي عاقبة لأن الإنسان يحس بعد كظم الغيظ بلذة وراحة نفسية وعقلية.
وهذا مثل قولهم: الحلم مرارة ساعة وحلاوة الدهر كله، وكان يقال: التذلل للناس مصايد الشرف.
لم يسهب الإمام ع في كلامه بقوله (عاقبة ومغبة) بل إنَّ: العاقبة للمستقبل البعيد والمغبة للمستقبل القريب.

(وَلِنْ لِمَنْ غالظَكَ فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَلِينَ لَكَ) كن ليناً مع من احتد معك وغالظك في الكلام فإنه يوشك أي يقرب أن يلين معك لأنه ردة فعله تجاه لينك ستكون قوية.

(وَجُدْ عَلَى عَدُوكَ بِالْفَضْلِ فَإِنَّهُ أَحَلَى الظَّفَرَيْنِ) تفضل على عدوك، فإنه أحلى الظفرين ظفر الانتقام وظفر العفو، وأحلى لأنه يورث الإنسان رفعة حتى في نظر عدوه وارتياحاً في ضمير المتفضل.

(وَإِنْ أردت قطيعة أخِيكَ فَاسْتَبْقِ لَهُ مِنْ نَفْسِكَ بَقِيَّةً يَرْجِعُ إِلَيْهَا إِنْ بَدَا ذَلِكَ لَهُ يَوْمًا مَا) أي إن أردت هجره فابقِ بقية للصلة يرجع لك بها إن أراد الرجوع مرة اخرى فإنَّ الرجوع بعد القطيعة التامة أشكل وأصعب من الرجوع إن كانت هناك بقية صلة.

ورد في نهج البلاغة أنَّ أمير المؤمنين ع قال: أحببْ حَبيبكَ هَوناً مَا عَسَى أن يكونَ بَغيضَكَ يَوماً مَا وَأبغض بَغيضَكَ هَوناً مَا عَسَى أن يكونَ حَبيبَكَ يَوماً مَا.

وقيل: إذا هويت فلا تكن غالياً، وإذا تركت فلا تكن قالياً.

(وَمَنْ ظن بك خَيْراً فَصَدَقَ ظَنَّهُ) كن كما ظن بك غيرك وافعل الأمر الذي يريده منك في الواقع فـ للقاصد حُرمة وللآمل ذمام وقيل أنه: يقال لمن قد شد طرفًا من العلم: هذا عالم، هذا فاضل، فيدعوه ما ظُنّ فيه من ذلك إلى تحقيقه فيواظب على الاشتغال بالعلم حتى يصير عالماً فاضلاً حقيقةً، وكذلك يقال: هذا كثير العبادة أو كثير الزهد لمن قد شرع في شيء من ذلك فتحمله أقوال الناس على الالتزام بالزهد والعبادة.

(وَلا تُضيعَنَّ حَقَّ أَخِيكَ اتِّكَالًا عَلَى مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ فَإِنَّهُ لَيْسَ لك بأخ منْ أَضْعَتَ حَقَّهُ) أي لا تضيع حق اخيك اعتماداً على ما بينك وبينه بأن تقول أنَّ صلتنا قوية فلا حاجة لإعطائه حقوقه، فإنَّ اضاعة الحق توجب قطع الصلة والبرودة بين الجانبين، وكان يقال: إضاعة الحقوق داعية العقوق.

(وَلَا يَكُنْ أَهْلُك أشقى الْخَلْق بك) لحرمانهم من حقوقهم اعتماداً على كونهم أهلك ولا يهم أمرهم وإنما المهم عندك أمر الأجانب.

قال الشيخ محمد جواد مغنية قدس سره الشارح الكبير لنهج البلاغة: مَن شَقي بِهِ أهله فهُو أشْقى النَّاس عَلى الإطْلاق، لأنَّ مَن يَبغي عَلى القَرِيب يَيأس النَّاس مِن خَيره، وَيَخَافُون مِن شرّه، ومَن يَسعد بِهِ القَرِيب يَرجُوه البَعِيد لِعَمل الخَيْر. قَالَ رَسُول الله ص: «خَيْرُكُم خَيْرُكُم لأهْلَه، وأنَا خَيْرُكُم لأهْلِي» هَذَا، إلى أنّ لِربّ الأُسرَة وسِيرته مَعَهَا التَّأْثِير البَالغ فِي صَلاَحها وفَسَادها، ونَعِيم الْبَيْت أو جَحِيمَه.

(ولا تَرْغَبَنَّ فِيمَنْ زَهِدَ عَنْك) الزهد: البعد، أي لا تقترب ممن يبتعد عنك لأن ذلك يوجب للنفس الذلة والمنقصة، والرغبة في الزاهد هي الداء العياء، فتجاهل من أدبر عنك كأنه لم يكن حتى ولو كانت الدنيا في قبضته فإنَّ الاستعانة بغير الله ذلٌ وهوان.

قال العباس بن الأحنف: مَا زِلْتُ أَزْهَدُ فِي مَوَدَّةِ رَاغِبٍ حَتَّى ابْتُلِيْتُ بِرَغْبَةٍ فِي زَاهِدِ

هَذَا هُوَ الدَّاءُ الَّذِي ضَاقَتْ بِهِ حِيَلُ الطَّبِيْبِ وَطَالَ يَأْسُ العَائِدِ

وقال آخر: أُنَاسٌ أَعْرَضُوا عَنَّا بِلَا جُرْمٍ وَلَا مَعْنَى

أَسَاؤُوا ظَنَّهُم فِيْنَا فَهَلَّا أَحْسَنُوا الظَّنَّا

فَإِنْ عَادُوا لَنَا عُدْنَا وَإِنْ خَانُوا لَمَا خُنَّا

وَإِنْ كَانُوا قَدِ اسْتَغْنُوا فَإِنَّا عَنْهُمُ أَغْنَى

(ولا يَكُونَنَّ أخوكَ أقْوَى عَلَى قَطيعَتِكَ مِنّكَ عَلَى صِلَتِهِ وَلَا يَكُونَنَّ عَلَى الإساءَةِ أَقْوَى منك على الْإِحْسَانِ) فإذا أتى هو بأسباب القطيعة فأتِ انت بأسباب الصلة حتى تتبدل القطيعة صلة، ولا تكن سريعاً عند الإساءة بطيئاً عند الإحسان.

(وَلَا يَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ ظُلْمُ مَنْ ظَلَمَكَ فَإِنَّهُ يَسْعَى فِي مَضَرَّتِهِ وَنَفْعِكَ) لا تعظم ظلم الناس لك لأن عاقبته محمودة فإن الظالم يسعى إلى ضرر نفسه ونفعك إذ الظالم حقير ومهان بين الناس والمظلوم عزيز ومحترم فلا يصح أن تقابل الاحسان بالإساءة، يقال: وجدنا أصل كل عداوة اصطناع المعروف إلى اللئام.

آراء الشرّاح لنهج البلاغة:

الشيخ ابن ميثم البحراني قدس سره: هنا نهانا الإمام ع في استعظام ظلم الظالمين لأن سعيه في ظلمك يستلزم مضرته في الآخرة بما توعد الله به الظالمين، ونفعك بما توعد الله به الصابرين على بلائهم، فكل من سعى في مضرتك ونفعك فلا ينبغي أن يكبر عليك صنيعه في حقك.

الشيخ محمد جواد مغنية قدس سره: يسعى في مضرته ونفعك عند الله لأن (يوم العدل على الظالم أشد من يوم الجور على المظلوم) كما يقول الامام سلام الله عليه، ولكن ليس معنى هذا أن نستسلم للظلم فإن جهاده فرض ومن قصر فهو شريك الظالم، ولو علم الظالم أن المظلوم يستميت دون حريته وكرامته لتحاماه. وعند مروره - طيب الله ثراه - على قوله ع (وليس جزاء من سرك ان تسوءه) يقول: هذا كلام مستأنف لا صلة له بما قبله كما توهم بعض الشارحين.

فإنه ليس جزاء من أحسن إليك ان تقابله بالإساءة لأنه زاد في أجرك عند الله، كأنما نسوا وجوب الجهاد ضد الباغي ومن مات دون عقال من ماله مات شهيداً وأن لا معنى للعدل إلا الضرب على أيدي المعتدين وإنَّ السكوت عنهم هو تشجيع للفساد في الارض.

السيد محمد تقي النقوي قدس سره: أي إنَّ الظالم بظلمه عليك يسعى في الإضرار على نفسه وإيصال النفع إليك وهو لا يعلم به بل يظن أنه أضرك وهو في الحقيقة يسرك لإيصاله النفع إليك، وإن كان الأمر على هذا المنوال يعني إذا سعى الظالم في مضرة نفسه ونفعك فلا بد أن لا تقابل هذا النفع بالإساءة ولا تعد ظلمه عليك كبيراً عظيماً وعليه فإن استعفاك فاعفُ عنه وإن اعتذر إليك فاقبل عذره.

الشارح المعتزلي: يقول جاء في الخبر المرفوع أنَّ النبي ص سمع عائشة تدعو على من سرق عقداً لها فقال لها ص: لا تفتحي عنه بدعائك - أي لا تخففي عذابه.

ويقول في شرح العبارة: لا تنتقم ممن ظلمك، فإنه قد نفعك بالآخرة بظلمه لك وليس جزاء من ينفع إنساناً أن يسيء إليه وهذا مقام جليل لا يقدر عليه إلا الأفراد من الأولياء الأبرار.

(وَلَيْسَ جَزَاء مَنْ سَرَّكَ أَنْ تَسُوءَهُ) كلمة مفردة مستقلة بنفسها ليست من تمام الكلام الاول والصحيح ما ذكرناه.